

عمر الأنصاري.. ابن القلم والسطر والمجاز عبدالرحمن بن محمد الأنصاري



□ عرِفْتُ عمر الأنصاري، فما عرفته إلا كما تُعرف الشموس في مطالعها، أو كما يُعرف السيف إذا لمع، أو كما يُعرف الفجر حين ينجلي. عرفته شابًّا، في أول الطريق، والقلم في يده لم يجفّ مداده بعد، لكنه كان من أولئك الذين وُلدوا وفي جبينهم مسحة من نور، وعلى ملامحهم أثر نبوءة: أن سيكون لهذا الصغير شأن في دنيا الكلمة، وشأو في ميدان الصحافة والفكر.

ومنذ أن زاملته في بداياته، رأيت فيه صدق النية، وحرارة الشغف، وتُبل الغاية، فإذا هو يخطو في ميدان الصحافة كما يمشي الفارس إلى قلب المعركة: لا يلتفت، ولا يتردد، ولا يطلب إلا النصر أو السداد.

غير أن الصحافة - على اتساعها - لم تكفه، ولم توفه شوقه إلى الخلق الفني والإبداع الروائي، فامتدت يداها إلى الرواية، وامتد قلمه معها، فخرج منها كما يخرج البحر من ضيق المجرى إلى سعة المحيط.

ولعلك إذا قرأت "ملك المور"، أو جُلّت في أروقة "طيبب تبنكتو"، أو نزلت في ربوع "حز تالا"، أيقنت أن وراء هذه النصوص عينًا ترى، وروحًا تتوهج، ولغةً تنساب كما ينساب الضوء في شقوق الجدران القديمة.

أما سر هذا التألق، وتلك النظارة في العبارة، والدفع في الأسلوب، فإنه سرٌّ متوارث، يرشح من دم الأنصار، أحفاد أولئك الذين نصرنا الله ورسوله □، فحملوا من بعده إرثًا لم تنطفئ جذوته: إرث الدين، والعلم، والبيان.

ولئن تفرّق أبناؤهم في الأرض منذ عهد الفتوحات، فإنهم لم يفرقوا عن ميراثهم الروحي، فكان كل ناشئ فيهم يُنشأ على القرآن وعلومه، وعلى السنة ووجهها، وعلى لغة العرب حين كانت لا تزال سيدة المعاني ومملكة العواطف.

ولذلك حين تمسك أحدهم بالقلم، لم يكن غريبًا أن ترى فيه الصحفي الموهوب، والأديب الأريب، والروائي المبدع، والمتحدث اللبق، والمثقف الموسوعي، كما رأينا ذلك في عمر.

ومع أن الصحافة - دون غيرها - هي التي تفتح له أبواب الرزق، وتسند معيشته، فإنها ليست إلا مظهرًا من مظاهر عبقريته، التي لا تُحبس في قالب، ولا تُختصر في عنوان.

ولعمري، إن كان من صعوبة في تصنيفه، فذلك لأنه لا يُصنّف، بل يُعرّف، كما تُعرف النجوم بعالي السماء، لا تُقاس، ولا تُحدّد، بل تُشار إليها ويُهتدى بها.

✍ عبد الرحمن الأنصاري